إشكالية المعنى القرآني وآليات التأويل عند ابن قتيبة (٦٧٢هـ)
دراسة وصفية تحليلية

إعداد

مصطفى منتوران

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مراكش، المغرب

- **ملخص البحث**

تتجاوز المقدمة التي مهّد بها ابن قتيبة لكتابه (تأويل مشكل القرآن) في مضمونها مجرد التقديم الموطّئ لمضامين الكتاب، لتختزن أصول مقاربة المقاطع الإشكالية في عربية القرآن، وهي إلى ذلك تمثل جسراً رابطاً بين طوري التأسيس والنشأة لعلم الأسئلة القرآنية المشكلة: طور ظلت فيه مشكلات القرآن مبثوثة في كتب معاني القرآن وغريبه، وطور آخر استقل فيه مشكل القرآن بنفسه علماً قائم الذات، معلوم الملامح والسمات، وقد حاول البحث استبانة المسار المعرفي لانتقال مشكلات القرآن من أسئلة قرآنية ظاهرها الإشكال، إلى علم له حدوده وضوابطه، اصطُلح على تسميته بعلم مشكل القرآن، وقد اعتمد الباحث المنهج الوصفي التحليلي مشفوعاً بمنهج تاريخي، من خلال تتبع مراحل وأطوار نشأة علم المشكل لاستبانة خصائصه المنهجية ووسائل اشتغاله، وكان المنطلق في عملية التحليل من مقدمة تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، سبراً لمضامينها الدالة على التعالق والتكامل المعرفي بين علوم النص العربية الناشئة في الثقافة الإسلامية.

الكلمات المفتاحية: مشكل المعنى- التأويل- النشأة الفطرية- النشأة الصناعية- عربية القرآن.

*****

مقدمة

الحمد لله بارئ الأنام، منزل القرآن على خير إنسان بأفصح لسان، محمد النبي المختار، صلى عليه الإله ما تعاقب الليل والنهار، وبعد؛

إن فهم كتاب الله تعالى وإفهامه خير ما تعلقت به الهمم؛ إذ به يقف العبد على ما أودع الله في كتابه من وجوه الإعجاز وأسرار البيان، وقد سارع أئمتنا إلى التأليف في مختلف علوم القرآن لَمَّا تباعد الزمان وانقضى زمن العروبة الفطرية، وتوالت حينئذ مؤلفات تعنى بمعاني القرآن وتفسير غريبه، وإيضاح مشكلاته، وفي هذا السياق المعرفي أنشأ ابن قتيبة كتابه «تأويل مشكل القرآن»، فكانت غايته إفهام معاني كتاب الله تعالى، والرد على الطاعنين فيه، وهي غاية لا يدركها إلا من أحاط بلغة العرب، وخبر مذاهبهم في الكلام؛ لأن القرآن نزل بفصيح أساليب العربية، وبما يعنون بها، وبذلك مثل «تأويل مشكل القرآن» موسوعة معرفية مهمة، تدل على مدى ما وصلت إليه الثقافة الإسلامية في مرحلة مبكرة من تاريخ تكوّن المعارف الإسلامية، فضلاً عن كونه كتاباً في أسئلة القرآن، صدر عن فترة مركزية تمثل الجذور الأساسية لنشأة المعارف الإسلامية.

ومن دواعي اختيار هذا الموضوع وإعمال يد البحث في مسائله، تَصَدُّر مشكل القرآن قائمة العلوم القرآنية الدقيقة التي تخدم عربية القرآن، وترفع الالتباس الذي قد يغشى أذهان بعض القاصرين عن إدراك مذاهب العرب التي نزل القرآن الكريم بها، ولما كان ابن قتيبة من أوائل الذين خاضوا غمار التأليف في مشكل القرآن -إن لم يكن أوَّلَهم- وهُوَ من هو في موسوعيته المعرفية وحذقه بعلوم العربية، مع سلوكه مَهْيَعَ أهل السنة ومنهجم في التأويل، انبرى الباحث إلى الكشف عن منهج هذا العَلَم واستبانة الآليات والوسائل اللغوية التي توسل بها لإيضاح معاني الآيات التي يحتمل ظاهرها الإشكال اللفظي أو الدلالي أو هما معاً، سالكاً منهجاً وصفياً تحليلياً مشفوعاً بمنهج تاريخي يرصد من خلاله

نشأة علم المشكل وتطوره، مع إيراد النماذج القرآنية من الألفاظ والعبارات المشكلة التي تُبين عن منهج ابن قتيبة في التأويل والإجابة عن الأسئلة القرآنية المشكلة.

ويرمي بحثنا هذا الموسوم بـ(**إشكالية المعنى القرآني وآليات التأويل عند ابن قتيبة ٢٧٦هـ**) إلى بيان أهمية علم المشكل القرآني في فهم معاني التنزيل وحَصْر أسس وقوانين تأويل مقاطع الإشكال في عربية القرآن كما وردت عند ابن قتيبة الذي أحاط بالموضوع إحاطة شاملة وبيّن مداخله المنهجية في وقت مبكر من تاريخ الثقافة الإسلامية. كما يهدف البحث إلى مقاربة مشكل القرآن باعتباره علماً من علوم القرآن الكريم، ساهم في تأسيس علم التفسير، ومثل رافداً من روافده الأساس، في محاولة لوضع كتاب (تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة في سياقه المعرفي، وربط مباحثه بموضوعه الأساس الذي هو الإجابة عن مشكلات القرآن، ولفت الأنظار إلى أن تلك المباحث اللغوية والبلاغية المتضمنة في المشكل هي نتاج البحث في الأسئلة القرآنية. وقد اعتمدنا في الاستدلال على هذا الملمح البحثَ في الأصول التي نثرها ابن قتيبة في مقدمة المشكل، وهي التي بنى عليها منهجه في هذا النمط من التأليف البديع.

ولقد عالج الباحثون في دراسات سابقة موضوع المشكل القرآني من زوايا متعددة، تُرَاوِحُ بين المقاربة الشاملة للموضوع، والمقتصرة على وجهة محددة، ولعل من أوفى تلك الدراسات تحليلاً وأشملها مباحثَ كتاب: (**مُشْكِلُ القرآن الكريم، بحث حول استشكال المفسرين لآيات القرآن الكريم: أسبابه، وأنواعه، وطرق دفعه**) للشيخ عبدالله بن حمد المنصور. صدر عن دار ابن الجوزي بالدمام، الطبعة الأولى عام ١٤٢٦هـ.

ومن الدراسات التي قاربت موضوع المشكل القرآني من وجهة تاريخية، بحث بعنوان: (**كتب مشكل القرآن حتى القرن السادس الهجري، دراسة لغوية تحليلية**) للطالب حامد أديينوي، وهي رسالة دكتوراه في الدراسات اللغوية في

جامعة العلوم الإسلامية العالمية، نوقشت عام ٢٠١٤م. تحت إشراف الأستاذ عودة خليل أبو عودة.

أما فيما يرتبط بموضوع بحثنا أساساً فنورد دراسة تأصيلية عرضت لمنهج ابن قتيبة في تعامله مع مشكل القرآن وهي كتاب بعنوان: (**منهج ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن وأثره في الدراسات القرآنية**) للدكتور فادي بن محمود الرياحنة، صدر عن دار دجلة ناشرون وموزعون، عمان الأردن، ٢٠١٢م. تطرق الباحث فيه إلى التعريف بابن قتيبة ومقدراته العلمية، ثم عرض لآليات الاستدلال وطرقه، ولخص موقف ابن قتيبة من قضية الإعجاز القرآني وبلاغة القرآن، وختم بحثه بأثر ابن قتيبة فيمن جاء بعده من المفسرين وعلماء القراءات.

وأما عن الخطة المتبعة في دراستنا لهذا الموضوع فتقوم على تتبع خصائص عربية القرآن الكريم في طورها الطبيعي الفطري التي اتسمت بعض مقاطعها بالإشكال الدلالي مما يوهم اختلافاً وتناقضاً، ثم عرضنا لعلم مشكل القرآن الكريم في الصناعية عند ابن قتيبة الدينوري، الذي اهتم بدفع مُوهمات التناقض عن المتشابه من آيات الذكر الحكيم وفق منهج علمي صناعي مستحدث، بإعمال آليات وسائل صناعية قِوامها علوم العربية بمستوياتها الصوتية والمعجمية والتركيبية، وقد تأسست الدراسة على مبحثين، تكفل الأول بالحديث عن البدايات الأولى لظهور مشكلات القرآن، والبحث في علاقتها بخصائص العربية، بينما خُصّص المبحث الثاني للنشأة الصناعية لعلوم العربية؛ كعلم النحو، وعلم التصريف، والبلاغة، والشعر، مع بيان أثرها في إيضاح مشكلات القرآن.

المبحث الأول:

النشأة الفطرية لمشكلات القرآن الكريم

تزامن ظهور مشكل القرآن مع المحاولات الأولى لتفسير القرآن الكريم؛ إذ كان بادئ الأمر في صورة أسئلة واستفسارات يرفعها الصحابة الكرام إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- ابتغاء رفع اللَّبْس عن الأفهام إزاء بعض المعاني القرآنية، ثم ظهر بعد ذلك الطعن في القرآن الكريم من وجوه متعددة، خاصة في إعجازه وطريقة نظمه.

وقد تتبع المفسرون الإشكالات القرآنية، فأجابوا عنها وأزالوا الغموض الذي يبدو على ظاهرها منذ القرن الأول إلى أن أضحى مشكل القرآن علماً قائماً بذاته له خصائصه التي تميزه عن غيره من العلوم القرآنية. وفرعاً مهماً من فروع التفسير وذلك مع بداية ظهور كتب معاني القرآن في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجريين.

إن البحث في مفهوم علم المشكل يقتضي منا البحث في بوادره الأولى قبل اكتمال أركانه مع ابن قتيبة، لاستبانة ملامحه الكبرى من مقدمة تأويل مشكل القرآن.

١. مشكل القرآن: عوامل الظهور ومسارات التكون

المشكِل في اللغة الملتبس المَشَابِهُ غيرَه، قال ابن قتيبة: «وسمي مُشْكِلاً؛ لأنه أشكل، أي دخل في شكل غيره فأشبهه وشاكله»[(١)]. وتحيل الدلالة المعجمية للفظ المشكل على معاني «المماثلة، والاشتباه، والاختلاط، والالتباس»[(٢)]؛ ولذلك احتيج المعنى المشكل لمزيد شرح وبيان حتى يزول خفاؤه، قال الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ): «شرح المشكل من الكلام: بسطه وإظهار ما يخفى من معانيه»[(٣)].

(١) تأويل مشكل القرآن، ص١٠٢.

(٢) مُشْكِلُ القرآن الكريم، بحث حول استشكال المفسرين لآيات القرآن الكريم: أسبابه، وأنواعه، وطرق دفعه، عبدالله بن حمد المنصور، ص، ٤٦.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن، ص ٤٤٩.

وينقسم المشكل القرآني -من حيث تعلقه باللفظ أو المعنى- إلى نوعين رئيسين؛ نوع يتعلق باللفظ وآخر يرتبط بالمعنى، والنوع الثاني هو الذي استأثر باهتمام ابن قتيبة في كتاب تأويل مشكل القرآن، «حيث إن كثيراً من مواطن الكتاب هي في بيان ما أشكل من المعاني»[1].

يمكن الحديث عن نشأة علم مشكل القرآن ضمن مسارين، أولهما؛ ما أثير من إشكالات محدودة في عصر النبوة، وقد تصدى له النبي -صلى الله عليه وسلم- بالإبانة في حينها، من ذلك ما رواه البخاري عن عبدالله بن مسعود أنه قال لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[2] شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا أيّنا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه ليس بذاك، ألا تسمع إلى قول لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[3].

أما المسار الثاني فيرتبط بالطعون الصادرة عن الجهلة بلغة القرآن، أو ممن تعمدوا الطعن على علم منهم ابتغاء الفتنة، فإذا كان الجهل بالعربية قد يلحق بعض المولدين ذوي الأصول غير العربية فإن العرب الخلّص «لا يحتمل أن يكون جهلهم إلا من قبل أنهم أعرضوا عن قبوله، ولا يجوز أن يكون نزل بنظم لم يعرفوه؛ إذ لا يكون حجة عليهم»[4] فههنا نكتة يجب التنبه إليها؛ ذلك أن الصحابة كانوا يفهمون المعاني المرادة من التنزيل، فإذا استشكلوا معنى تأنّوا في فهمه لوجود النبي -صلى الله عليه وسلم- بين ظهرانيهم، فكانوا يطيلون التدبر فيفتح الله عليهم المعاني الخفية والأسرار المعجزة، فتنشرح صدورهم ويزدادوا إيماناً.

(١) مُشْكِلُ القرآن الكريم، بحث حول استشكال المفسرين لآيات القرآن الكريم: أسبابه، وأنواعه، وطرق دفعه، عبدالله بن حمد المنصور، ص، ٥٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٨٢.

(٣) سورة لقمان، الآية ١٣. والحديث رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب (لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) والأدلة على استشكال الصحابة لبعض المعاني القرآنية مشهورة ومبثوثة في مقدمات التفاسير وكتب علوم القرآن.

(٤) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج٢، ص٩٢.

وأما عامة العرب الأقحاح فإن الشواهد تدل على فهمهم لأساليب العربية، وعلى اعترافهم بعلو بلاغة القرآن وإعجاز بيانه، ولذلك لم يطعنوا فيه من جهة اختلافه وفساد نظمه، وقد تُحدوا بأن يأتوا بآية من مثله فعجزوا عن ذلك وهم البلغاء الأبيناء.

بينما بادر إلى الطعن في لغة القرآن أولئك الذين لا يعرفون من العربية إلا اسمها، قاسوا أسلوب القرآن ونظمه بأساليبهم الكليلة، فرموا نظم القرآن وتراكيبه باللحن والتناقض وفساد النظم، قال ابن قتيبة: «ولو كان ما نحلوا إليه على تقريرهم وتأولهم، لسبق إلى الطعن به من لم يزل رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، يحتج عليه بالقرآن، ويجعله العلم لنبوته، والدليل على صدقه، ويتحداه في موطن بعد موطن، على أن يأتي بسورة من مثله. وهم الفصحاء والبلغاء، والخطباء والشعراء، والمخصوصون من بين جميع الأنام بالألسنة الحداد، واللّدد في الخصام، مع اللب والنهى، وأصالة الرأي»[1] فلما تبين أن الأمر على خلاف تأولهم وتقريرهم بان أن الطاعنين يعوزهم فهم نظام كلام العرب، فضلا عما أشربوا في قلوبهم من حب الفتنة والجرأة على كلام الله عز وجل.

٢. مشكلات عربية القرآن وخصائص الكلام العربي

لا ريب أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، ولذلك كان للعرب القدح المعلى في فهم معانيه؛ إذ نزل بأساليبهم وطرائقهم في البيان، وقد يحصل لغير العربي أو للجاهل بكلام العرب ما يقدح زناد الشبهة في نفسه، مما دفع بعلماء الأمة إلى تحمل مهمة البيان حتى لا يتوهم جاهل أن في القرآن تناقضاً واختلافاً، قال الزركشي: «قد يقع للمبتدئ ما يوهم اختلافاً وليس به، فاحتيج لإزالته».[2]

(١) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص٢٢.
(٢) البرهان في علوم القرآن، ج ٢، ص٤٥.

لقد ارتبط القرآن الكريم بكلام العرب في جل خصائصه، فلما كان من أساليبهم الواضح الجلي، والمشكل الغامض الخفي، كانت أساليب القرآن كذلك، وفي سبيل إيضاح هذه المشاكلة بين نظم القرآن وأساليب العربية، والتنصيص على أن الكلام مراتب، يقول ابن فارس: «أما واضح الكلام فالذي يفهمه كل سامع عرف ظاهر كلام العرب. كقول القائل: شربت ماء ولقيت زيدا. وكما جاء في كتاب الله جل ثناؤه من قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ (...) وأما المشكل، فالذي يأتيه الإشكال من غرابة لفظه، أو أن تكون فيه إشارة إلى خبر لم يذكره قائله على جهته، أو أن يكون الكلام في شيء غير محدود، أو يكون وجيزاً في نفسه غير مبسوط، أو تكون ألفاظه مشتركة»[1].

فالذي قد يبدو مشكلاً للجاهل بلغة العرب هو من صميم أساليب اللسان العربي، وكان من كمال عدل الله عز وجل أن خاطب القوم بما يوافق مذاهبهم في الكلام لئلا يبقى للناس حجة على الله.

وقد استشكل أقوام مجيء القرآن بمثل تلك الأساليب الخفية، فتساءلوا عن الغاية منها، ولِمَ لم يكن أسلوب القرآن كله مكشوفاً؟ فأجاب العلماء عن سؤالهم، وردوا عما استشكلوه بمثل قول ابن قتيبة: «فالجواب عنه أن القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها، ومذاهبها في الإيجاز، والاختصار، والإطالة والتوكيد، والإشارة إلى الشيء، وإغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليها إلا اللَّقِنُ، وإظهارُ بعضها، وضرب الأمثال لما خفي»[2].

ولعل من نكت هذا الملمح أن العلماء قد ذكروا لمشكلات القرآن فضائل شتى، من ذلك أنها تكون مدعاة لتدبر ومدارسة آيات التنزيل، قال القاضي عبد الجبار: «والْتِباسُ الأَمر يُحوِج إلى مذاكرة العلماء ومباحثتهم، ومساءلتهم ما يحتاج إليه في أمر دينه، إذا كان ممن يطلب الفوز والنجاة، ومتى رجع إليهم

(١) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ابن فارس، ص ٦٩-٧٠.
(٢) تأويل مشكل القرآن، ص ٨٦.

وحصلت المباحثة، كان ذلك أقرب إلى أن يقف على ما كُلِّف من معرفة الله تعالى، وكلُّ أمر أدّى إلى ما يؤدي إلى معرفة الله فهو أولى»[١].

والحق أن الإشكالات القرآنية تعترض عامة الناس فيتوهمون في ظاهر بعض الآيات تناقضاً واختلافاً وليس بها؛ لأن من خصائص كلامه عز وجل تمام الإبانة، لكن قد تغمض بعض المعاني الخفية على العلماء أنفسهم، قال ابن تيمية: «قد يكون في القرآن آيات لا يعلم معناها كثير من العلماء فضلاً عن غيرهم، وليس ذلك في آية معينة، بل قد يشكل على هذا ما يعرفه هذا»[٢].

ولعل من إعجاز أسلوب القرآن أن يظل شامخاً لا يدرك معانيه وأسراره إلا من دَاومَ فيه النظر، وعاود التدبر أمداً طويلاً، ومع ذلك تبقى أسراره خفية غير متناهية، أبى الله إلا أن يظهر عجز العباد عن إدراك كل ما أودعه في كتابه من عظيم الأسرار، فلا يضير القرآن بعد هذا أن يستشكل المرء بعض معانيه لعلة من العلل التي تعتري بني الإنسان في مختلف الأزمنة، قال ابن تيمية: «نعم قد يشكل على كثير من الناس نصوص لا يفهمونها، فتكون مشكلة بالنسبة إليهم، لعجز فهمهم عن معانيها، ولا يجوز أن يكون في القرآن ما يخالف صريح العقل والحس إلا وفي القرآن بيان معناه، فإن القرآن جعله الله شفاء لما في الصدور، فلا يجوز أن يكون بخلاف ذلك، لكن قد تخفى آثار الرسالة في بعض الأمكنة والأزمنة حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- إما ألّا يعرفوا اللفظ، وإما أن يعرفوا اللفظ ولا يعرفوا معناه، فحينئذ يصيرون في جاهلية بسبب عدم نور النبوة»[٣].

فمشكلات القرآن الكريم والنظر فيها كانت حاصلة في الدرس التأويلي للنص القرآني منذ زمن الوحي، لوجود عنصر الإشكال في التعبير القرآني فطرة

(١) متشابه القرآن، القاضي، عبد الجبار، ج١،ص٢٥.
(٢) تفسير سورة الإخلاص، ابن تيمية، ص١٣٧.
(٣) تفسير سورة الإخلاص، ص ٧٨.

وسليقة، سيراً على سنن كلام العرب، وهو ما يؤسس له ابن قتيبة في حديثه عن خصائص أصول الخطابة عند العرب، بقوله - في مقدمة المشكل- «ثم لا يأتي بالكلام كله، مهذباً كل التهذيب، ومصفى كل التصفية، بل نجده يمزج ويشوب، ليدل بالنقص على الوافر، وبالغث على السمين، ولو جعله كلَّه نجراً وحداً، لبخسه بهاءه ولسلبه ماءه، ومثل ذلك الشهاب من القبس تبرزه للشعاع، والكوكبان يقترنان، فينقص النوران، والسِّخاب ينظم بالياقوت والمرجان والعقيق والعقيان، ولا يجعل كلُّه جنساً واحداً من الرفيع الثمين، ولا النفيس المصون»[1].

فالمزج بين الواضح البين من الكلام والمشكل الخفي الذي لا يظهر إلا بكد الفكر أسلوب تتقصده العرب في كلامها، وقد نزل القرآن مساوقاً لكلام العرب في هذه الخصيصة الأسلوبية، ليكون للناظر المتدبر والباحث المنقب فضل التمعن، وأجر التدبر، فيبلغ من الرفعة ما لا يبلغه الناظر في آيات التنزيل نظرة الطائر، وقد دأب العلماء الأوائل على اقتفاء هذا المسلك في بدايات عصر التدوين، والسير على هذا النمط من البناء في تأليف الكلام، فهذا سيبويه قد عمل «كتابه على لغة العرب وخطبها وبلاغتها، فجعل فيه بيناً مشروحاً، وجعل فيه مشتبهاً؛ ليكون لمن استنبط ونظر فضل، وعلى هذا خاطبهم الله -عز وجل- بالقرآن» [2].

وروعي هذا الأصل في منظومة العلوم وطريقة بنائها، ففي كل فن ما يدرك بالبداهة، ومنه الصعب الذي لا ينقاد إلا للطالب المجد الجاثي على ركبتيه بين يدي شارح ومعلم، وتصديق هذا من قول ابن قتيبة: «وكل باب من أبواب العلم: من الفقه والحساب والفرائض والنحو، فمنه ما يجل، ومنه ما يدِق، ليرتقي المتعلم فيه رتبة بعد رتبة، حتى يبلغ منتهاه، ويدرك أقصاه ولتكون للعالم فضيلة النظر، وحسن الاستخراج، ولتقع المثوبة من الله على حسن العناية»[3].

(١) تأويل مشكل القرآن، ص ١٣.
(٢) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، البغدادي، ج١، ص ٣٧.
(٣) تأويل مشكل القرآن، ص ٨٦.

المبحث الثاني:

النشأة الصناعية لعلوم العربية وأثرها في إيضاح مشكلات القرآن

لقد عرفت جل العلوم المعرفية الإسلامية نشأتين: الأولى فطرية طبيعية، تكوّنت بالفطرة والمعاجلة العفوية في عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وصحابته والتابعين، والثانية صناعية اقتدائية أخذت تتكون شيئاً فشيئاً، وتستنسخ عناصر النشأة الأولى؛ إذ هي الأصل الذي تستمد منها مقومات الامتداد، وبفضل هذا التناسخ المعرفي ينتقل العلم من طور فطري ذهني، إلى نموذج صناعي يُكتسب بالخبرة والتعلم، وبذلك يمثل المعادل المعرفي الذي يختزل كل عناصر النشأة الأولى في تركيب منسجم اصطلح على تسميته بـ(العلم).

ووفق هذا المهاد سنقارب نشأة علم من العلوم الإسلامية الدقيقة وهو علم (مُشكِل القرآن)، ونرى أن المعالجة السليمة لهذا الموضوع يجب أن تمر عبر مداخل ومسارات أساسية وليدة حقبة تاريخية لها سياق معرفي خاص، وهي تؤول في مجملها إلى شيوع الجهل بعربية القرآن لدى جيل من المولدين بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية، ولم يكن هذا حال الصحابة -رضي الله عنهم- إذ هم عرب فصحاء يفهمون نظم القرآن، ويدركون معانيه جليّها وخفيّها إدراكاً فطرياً؛ لأنهم لو لم تكن حالهم كذلك لم يكن القرآن حجة عليهم، وهم في هذا المقام العلمي وغيرُهم من العرب المشركين سواء، قال ابن العربي: (لما رأينا العرب الأعادي والأولياء الشادين والعلماء لم يقدحوا فيه، ولا مالوا عنه، قطعاً على أنه كان مفهوماً عندهم جارياً على سبيل العربية، وهذا مقام علم).[1]

وإذا كان الاتفاق قد انعقد بين المفسرين على أن بعض معاني القرآن مشكلة فإنهم اختلفوا في طريقة التأويل، ومنهج التفسير، ومردّ الاختلاف عائد إلى تباين الفهوم إزاء قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ

(١) قانون التأويل، ابن العربي، ص ٥٣١.

آمَنَّا بِهِ﴾[1]، فقد ذهب قوم من الصحابة وفي مقدمتهم عبدالله بن عباس إلى أن القرآن يتضمن بعض المعاني التي لا يعلم تأويلها إلا الله، أما القول الثاني - وهو مذهب علماء الكلام- فمضمونه أن القرآن يجب أن يكون كله معلوما، وإلا أدى خلاف ذلك إلى عدم الانتفاع به.

إن البحث في الجذور والتنقيب عن عومل النشأة والبدايات منهج مطلوب في الدراسة، ومسلك نافع في مهيع تأصيل العلوم واستبانة أسسها، قال الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾[2]. لقد ارتبط تأسيس علم مشكل القرآن بشخصية إسلامية عرفت بمنهج علمي دقيق، وبنزعة ابتكارية في التأليف، قلّ نظيرها في عصره، ذلكم أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢٧٦هـ)، وقد عرف هذا العالم الإسلامي بالسبق إلى توظيف الخطاب المقدّماتي واستيعاب وظائفه المنهجية في تأسيس العلوم والفنون، وتصحيح مساراتها، ولا أدل على ذلك من رسالته المشهورة التي قدّم بها لمؤلفه «أدب الكاتب» الذي وضع فيه أسس الكتابة الأدبية.

إن تحول مشكلات القرآن من معارف طبيعية، إلى علم صناعي هو «علم مشكل القرآن» انتقال تأسيسي تحكمت فيه مداخل معرفية كبرى، قد اكتمل بنيانها في القرن الثاني الهجري، وهو ما يعلنه ابن قتيبة في مقدمة المشكل بشكل غير صريح، ويمكن مقاربة تلك المداخل المنهجية وفق تصورين متوازيين:

١. التكوّن الصناعي لعلوم العربية

ما كان لعلوم العربية التي لها صلة مباشرة بالنص القرآني أن تتأسس لولا توافر الأسباب المعرفية المتحكمة في نشأة العلوم، وقد ذكر ابن قتيبة طرفاً منها وعدها وسائل وأدوات أساسية تساعد على ممارسة التأويل إزاء الأسئلة المشكلة في القرآن، فمن تلك الأسباب ما يلي:

(١) سورة آل عمران، الآية ٧.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٢٠.

- **علم الأصوات، أصوله وأبعاده الدلالية**

إن حركة الجمع اللغوي التي قام بها اللغويون الأوائل، لاستقراء مختلف الألفاظ والتراكيب، وجمع أشتات الكلام الفصيح من أفواه الرجال في الصحاري ومختلف الأمصار قد أفضت إلى وضع تصور شامل لأبنية العربية وأصواتها، وقد خلص ابن قتيبة في هذا الصدد إلى حصر المنظومة الصوتية لحروف العربية، فصرح بأفضليتها؛ لأنها تستوعب ألفاظ جميع الأمم، يقول: «وألفاظ العرب مبنية على (ثمانية وعشرين حرفاً)، وهي أقصى طوق اللسان. و(ألفاظ جميع الأمم) قاصرة عن (ثمانية وعشرين حرفاً)، ولست واجداً في شيء من كلامهم حرفاً ليس في حرفنا إلا معدولاً عن مخرجه شيئاً، مثل (الحرف المتوسط مخرجي القاف والكاف)، و(الحرف المتوسط مخرجي الفاء والباء). فهذه حال العرب في مباني ألفاظها»[(١)].

تتمثل أهمية الصوت في كونه النّواة الأساس التي ينبني عليها ويتشكل منها نظام اللغة بأسره، فليست اللغة سوى «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[(٢)] فالصوت وحَدَة دون الحرف؛ لأن الحرف ينشأ عن توقف الصوت أو تردّده أو انثنائه، وأما الصوت فيعرِّفه العلامة محمود شاكر بقوله: «فالصوت نَفَسٌ مقذوف من الجوف إلى الحلق إلى الفم يخرج مدفوعاً مستطيلاً متصلاً حتى يعرض له في طريق استطالته أو اندفاعه ما يُثنيه أو يقفُه أو يردّده أو ينكّسه، وإنما يعرض له ذلك في الحلق أو الفم أو الشفتين أو الثنايا والأضراس مع اللسان، أو في الخيشوم أو في أعلى الحنَك، على اختلاف في مواقع النّفَس من كلّ هذه الأعضاء»[(٣)].

اكتمل بناء علم الأصوات قبل عصر ابن قتيبة، وأتيحت له فرصة توظيف نتائجه في سياق البحث في مشكلات القرآن، وقد تمثلت أصول ابن قتيبة الصوتية في مصدرين بارزين، فالأول تجسده تلك المعارف التي استقاها

(١) تأويل مشكل القرآن، ص ١٤.
(٢) الخصائص، ابن جني، عثمان أبو الفتح، ج١، ص٣٣.
(٣) جمهرة مقالات محمود شاكر، محمود شاكر، ج١، ص ٧١٠.

من علماء القراءات والتجويد، والثاني يدل عليه ما تلقاه عن رواد الدراسات المعجمية والقاموسية، وفي مقدمتهم الخليل بن أحمد الفراهيدي، ولعل إشارات الخليل وسيبويه في هذا الباب هي التي مثّلت أسس التحليل الصوتي، والبحث في الأبعاد الدلالية لأصوات العربية مفردة كانت أو مركبة، وإلماحاتهما في هذا الصدد - وإن كانت محدودة- لا تخلو من تمثّل عميق لنظام اللغة ومكوناتها؛ ولذلك عُدّ الفراهيدي «أول من وضع أصول علم الصوت من العرب، وهو أول من أدرك الوشيجة بين الأصوات والدلالات بحسه اللغوي الدقيق المرهف»[1].

يستحضر ابن قتيبة البعد الدلالي للأصوات في الكلام العربي ومدى التغاير الذي يلحق اللفظ بتغير الصوت مما يدل على أن من يعاني علم المشكل لا يسعه الجهل بالأساليب الصوتية المأثورة عن العرب، فهم يفرقون «بحركة البناء في الحرف الواحد بين المعنيين؛ فيقولون: رجل لُعْنةٌ، إذا كان يلعنه الناس. فإذا كان هو الذي يلعن الناس، قالوا: رجل لُعَنَةٌ، فحركوا العين بالفتح»[2]. وقد تتبع ابن قتيبة مقاطع الإشكال التي تتعلق بتغاير بنية الكلمة لاختلاف القراءات القرآنية، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾.[3] تغاير الفعل (بَاعَد) بين دلالته على الماضي ودلالته على الأمر (باعِدْ)[4]، وتوجيه ابن قتيبة للبنائين على أن الصيغة الأمرية (باعِدْ) مُراد بها الدعاء والمسألة، وصيغة الماضي (بَاعَد) على جهة الخبر، والمعنيان وإن اختلفا صحيحان[5].

(١) الصوت وأثره في الدلالة، معيوف الشماع، شذى، وانظر: أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة كتاب العين، أحمد، محمد قدُّور، ص٦٦.

(٢) تأويل مشكل القرآن، ص ١٥.

(٣) سورة سبأ، الآية ١٩.

(٤) قرأ يعقوب (ربُّنا) بضم الباء و(باعَدَ) بالألف وفتح العين والدال على أنه فعل ماض. وقرا ابن كثير وأبو عمرو وهشام (ربّنَا) بالنصب و(بعِّدْ) بكسر العين المشددة بلا ألف وإسكان الدال، والباقون (ربنَّا) بالنصب، و(بَاعِدْ) بالألف وكسر العين وسكون الدال. شرح طيبة النشر في القراءات، ابن الجزري، ص ٢٩٩.

(٥) تأويل مشكل القرآن، ص٤١.

- **فاعلية علم التصريف في درء الإشكال اللفظي**

علم التصريف نمط من العلوم النصية التي تهتم بأبنية الكلم من حيث أوزانها وطبيعة الحروف المركبة منها، وهو قطب علوم العربية فلا يستغنى عنه في الدرس التحليلي، وفي بيان مقدار الحاجة إليه يقول ابن جني: «يحتاج إليه جميع أهل العربية أتم حاجة، وبهم إليه أشد فاقة؛ لأنه ميزان العربية، وبه تعرف أصول كلام العرب من الزوائد الداخلة عليها، ولا يوصل إلى معرفة الاشتقاق إلا به، وقد يؤخذ جزء من اللغة كبير بالقياس، ولا يوصل إلى ذلك إلا من طريق التصريف»[1]، إن هذه الوظائف التي يتولى علم التصريف القيام بها في سياق تحليل النصوص لهي من صميم مشكل القرآن الذي يتتبع مقاطع الإشكال في النص القرآني، وتعد المشكلات التصريفية من البؤر الإشكالية التي استوقفت أبا محمد على امتداد تأويل مشكل القرآن، وكان يستدعي لها المعرفة القائمة على أصول التصريف والاشتقاق في العربية، مما يشي بوجود دلالة تصريفية وتحكم المعنى في الدرس الصرفي، ولذلك لم يكن بدعاً أن أسّس ابن قتيبة لهذه الوسيلة التحليلية في مقدمة كتابه بقوله: «وقد يكتنف الشيء معانٍ فيشتق لكل معنى منها اسم من اسم ذلك الشيء، كاشتقاقهم من البطن للخَميص: (مُبَطّن) وللعظيم البطن إذا كان خِلقة: (بَطِين) فإذا كان من كثرة الأكل قيل (مِبْطان) وللمنهوم: (بَطِن) وللعليل البطن: (مَبْطون)»[2].

تضمن هذا النص صورة واضحة لتغير الألفاظ من جذر واحد، وانتقالها عبر دلالات مختلفة، فالصيغ الصرفية اشتقاقية لكن معانيها متباينة. ولقد عبر ابن قتيبة بهذا النص في صدر كتابه عن أثر البنية الصرفية في المعنى، وألمح إلى أن الصيغ الصرفية ليست مجرد قوالب تظهر فيها المعاني فحسب، وبالتالي يكون استحضار هذه المعرفة ضمن الأدوات التحليلية التي تقارب المعاني المشكلة أولى وأجب.

(١) المنصف، ابن جني ج١، ص٢.
(٢) تأويل مشكل القرآن، ص ١٧.

- **علم الإعراب (النحو العربي)**

من العلوم الصناعية التي لها ارتباط وثيق بالنص القرآني علم «النحو العربي»، أو «علم الإعراب»، وقد شهدت نشأة علم النحو العربي (النشأة الصناعية) مخاضاً عسيراً، وتحكمت في هذه النشأة عوامل مباشرة وهي انتشار اللحن بصورتيه: اللحن في لغة التواصل، واللحن في النص القرآني، وأما العوامل غير المباشرة فتتمثل في الأحداث التي واكبت الجمع الثالث للمصحف الكريم (جمع عثمان بن عفان) رضي الله عنه، وأقوى تلك الأحداث هو التأسيس لظاهرة الكتابة التي تشتمل: «على مظاهر لغوية في الخط العربي، فالكتابة نظام شفري مكون من العلامات الخطية البصرية التي يصل القارئ بواسطتها إلى الكلمات والمعاني. وهي تتضمن لذلك بعض تقاليد اللغة، وتصريفها وتحليل أجزائها، ما يهيئ الولوج إلى أوليات المعرفة النحوية واستفتاح مداخلها»[1] فكتابة المصحف ونقطه وتجسيد مختلف صوره القرائية على طريق الرسم القرآني كل ذلك كان حافزاً قوياً نحو ابتكار المعرفة النحوية.

وقد كان ابن قتيبة واعياً بأهمية النحو العربي في التصدي لمشكلات القرآن، ولا سيما أن الخطاب فيه موجه بالأساس إلى المتلقين الذين اكتسبوا العربية عن طريق التعلم، أما ذوو الفطرة العربية فخبرتهم بأساليب اللسان العربي تُغنيهم عن العلوم الصناعية، وإذا كان طلب المعنى هو مأمّ ابن قتيبة في مشكله فإنه يشير إلى أثر الصناعة النحوية وفاعليته في الكشف عن المعنى، وذلك بتأكيده على أهمية القرينة النحوية بقوله: (ولو أن قائلاً قال: (هذا قاتلٌ أخي) بالتنوين، وقال آخر: (هذا قاتلُ أخي بالإضافة) -لدل التنوين على أنه لم يقتله، ودل حذف التنوين على أنه قد قتله)[2].

(١) النحو والتفسير: أصول نظرية ونماذج تطبيقية، مصطفى، أبو حازم، ص٧٥.
(٢) تأويل مشكل القرآن، ص ١٤.

فهذا نص صريح يعتمد المعرفة النحوية في صورتها الصناعية المبتكرة في التفرقة الدلالية بين تركيبين متقاربين، وقد رُفع الإشكال واتضح المعنى من النص بمراعاة العلامة الإعرابية. والمتتبع لفصول تأويل مشكل القرآن ومباحثه يجد تخريج المشكلات القرآنية عن طريق المعرفة النحوية مطردة في كل مقاطع الكتاب. ومما يدل على أن نحو ابن قتيبة هو نحو صناعي يتجاوز الأنساق الطبيعية للغة هو اشتمال هذا النص القصير على منظومة مصطلحات نحوية، مثل: التنوين، والإضافة وحذف التنوين وغيرها.

إن مباحث النحو لتعد معايير أساسية يستند إليها في علم لغة النص؛ إذ بمراعاتها يتحقق التماسك بين مفردات النص وجمله المتتالية، عن طريق الإحالة والإضمار والإشارة، وآليات الربط النحوي على اختلاف صورها.

- **الأساليب البلاغية ومشكل القرآن**

يعد كتاب تأويل مشكل القرآن من المصنفات التأصيلية التي ترصد تطور البلاغة العربية، وما ذلك إلا لارتباط مشكل القرآن بالبلاغة العربية، فالبحث في المشكلات اللغوية إطار عام لطرح القضايا البلاغية، واستدعاء أنساق التخاطب في كلام العرب، وهي تقنية مركزية في منهج ابن قتيبة التحليلي؛ ولذلك فقد حرص ابن قتيبة على جرد طائفة من الأساليب العربية الفطرية، المنظومة أو المنثورة، ثم صنفها في مباحث كتابه، وأطلق عليها مصطلحات علمية تضفي عليها الطابع الصناعي، وتنزع عنها الوصف الطبيعي لمكونات اللغة، وفي هذا الصدد نشير إلى أن كتاب تأويل مشكل القرآن هو أول مؤلف لغوي تراثي ورد فيه مصطلح (الأساليب) وقصد به ابن قتيبة مذاهب العرب في الكلام، وطرائق افتنانهم في القول، وذلك في قوله: «وإنما يعرف فضل القرآن من كثُر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خصّ الله به

لغتها دون جميع اللغات»[1]. ولم يكن يقصد ابن قتيبة بالأساليب هاهنا التراكيب وحسب؛ إذ لا يكفي لفهم القرآن أن نقتصر على مكون واحد من مكونات الكلام، لأن القرآن أُنزل-كما يقول الشاطبي (٧٩٠هـ): (على لسان معهود العرب في ألفاظها الخاصة وأساليب معانيها)[2].

وبمقدور متأمّل مضامين تأويل مُشْكِل القرآن لابن قتيبة وموضوعاته أن يلحظ مدى اتّساع مفهوم الأساليب عنده، ليشمل مستويات اللغة الصوتية والصرفية والنحوية التركيبية، فلقد تناول مختلف الظواهر اللغوية التي تحقق انسجام النص وتماسكه، كالحذف، والقلب، والتقديم والتأخير، وظواهر الحمل على المعنى، وغير ذلك مما يسميه (المجازات) أو (المذاهب)[3]، ويدخل أيضاً ضمن مكونات مصطلح (الأساليب) عنده ما فُطِر عليه العرب من طريقة ترصيف الأصوات وسبكها ووظائفها الدلالية، فإن للعرب في ذلك مذاهب وطرائق فطرية تحتذى، يقول ابن قتيبة - في طعنه المشهور على قراءة حمزة بن حبيب الزيات(١٢٧هـ) -: «هذا إلى نبذه في قراءته مذاهب العرب وأهل الحجاز، بإفراطه في المد والهمز والإشباع، وإفْحاشه في الإضجاع والإدغام»[4]، فدل بهذا على أن للعرب مذاهب صوتية، يقاس عليها غيرها من الأنساق الصوتية.

وقد عرض ابن قتيبة في آخر كتابه لتفسير أساليب التعدد الدلالي الناتجة عن الألفاظ المشتركة في النص القرآني، وبيّن أن من مذاهب العرب إطلاق اللفظ الواحد على المعاني المختلفة، ومثّل لذلك من ألفاظ القرآن بأربعة وأربعين لفظا،[5] وعطف على هذا بمذاهب العرب في استعمال الأدوات وحروف

(١) تأويل مشكل القرآن، ص ١٢.
(٢) الموافقات، الشاطبي، أبو إسحاق، ج٢، ص١٠٣.
(٣) انظر، تأويل مشكل القرآن، ص ٢٠-٢١.
(٤) تأويل مشكل القرآن، ص ٦٠.
(٥) انظر: المصدر نفسه، باب اللفظ الواحد للمعاني المختلفة، ص ٤٣٩.

المعاني[١]. وعلى فهم هذه المذاهب كلِّها والخبرة بها يتوقف استكناه دلالة النص القرآني ومعرفة فضل القرآن الكريم.

بعد هذا يحق للباحث أن يقول: إن الأساليب عند ابن قتيبة يراد بها مجموع الإطلاقات والاستعمالات الفطرية التي نزل القرآن الكريم وفقها، وهو ما يُعبّر عنه اختصارا بـ (كلام العرب)، ومن ثمّ ذهب أحد الدارسين إلى أن مفهوم الأسلوب عند ابن قتيبة «رديف لكلام العرب»[٢]. وهي آليات وأدوات نصية تكشف عن تلاحم بنية النص القرآني واتساق أجزائه، وقد أسعفته هذه الأدوات في الإجابة عن الأسئلة المشكلة في النص القرآني.

وفي مقدمة الكتاب نجد التأصيل المنهجي لعلاقة هذه الأساليب العربية بحقل مشكل القرآن في قول ابن قتيبة: «وبكل هذه المذاهب نزل القرآن»[٣]، فتلك الأساليب يعدها ابن قتيبة حجة مرجعية يوضح بها المشكلات القرآنية حين لا يجد تفسيراً شافياً في الأقوال المأثورة عن الأئمة ممن سبقوه، وهو ما صرح به قائلاً: «فألّفت هذا الكتاب جامعاً لتأويل مشكل القرآن، مستنبطاً ذلك من التفسير بزيادة في الشرح والإيضاح، وحاملاً ما أعلم فيه مقالاً لإمام مطلع على لغات العرب»[٤]. وهذا ملمح من ملامح التجديد والابتكار في تحليل النص القرآني أملته الظروف الحضارية للأمة التي كثر فيها المولدون الوافدون من ثقافات أعجمية، وبهذا يكون من أخص خصائص علم المشكل تخريج معاني الخطاب القرآني على المعهود في كلام العرب، هي إذن مقاربة نصوص الوحي القرآني بمقتضى كلام العرب شعره ونثره.

(١) المصدر نفسه، ص: ٥١٨.
(٢) تغاير الأسلوب في القراءات القرآنية، وأثره في اختلاف المعنى، سيّب، خير الدين، ص٢٠.
(٣) تأويل مشكل القرآن، ص ٢١.
(٤) نفسه، ص: ٢٣.

- **الشاهد الشعري ووظيفته الاستدلالية**

يحتل (الشعر) وعلومه فضاء استدلالياً مركزياً في مقدمة المشكل، ويزداد اتساعاً عند الممارسة النصية في مختلف مسائل الكتاب، فإن الشواهد الشعرية في المشكل تتنزل منزلة الصدارة ضمن مرجعيات الاستدلال في منهج ابن قتيبة وتأويله النصي، فالشعر العربي -بحسب ابن قتيبة- عطاء رباني لهذه الأمة؛ لتعدد وظائفه وإسهاماته في حفظ إرثها الحضاري، يقول: «وللعرب الشعر الذي أقامه الله تعالى لها مقام الكتاب لغيرها، وجعله لعلومها مستودعاً، ولآدابها حافظاً، ولأنسابها مقيداً، ولأخبارها ديواناً لا يرث على الدهر، ولا يبيد على مر الزمان. وحرسه بالوزن، والقوافي، وحسن النظم، وجودة التخيير-من التدليس والتغيير، فمن أراد أن يحدث فيه شيئاً عسر ذلك عليه، ولم يخف له كما يخفى في الكلام المنثور»[1].

ولقد فاقت شواهد الشعر في تأويل مشكل القرآن أربع مائة شاهد شعري، وكانت عدّتَه الاستدلالية في مختلف وجوه المشكلات القرآنية، وخاصة في سياق الحديث عن مجازات عربية القرآن، فمن ذلك توجيه دلالة القول المسند للسماء والأرض في قوله تعالى: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[2] انطلاقاً من شاهد شعري وهو قول المثقب العبدي:

تَقُولُ إذا دَرَأْتُ لها وَضِينِي: أَهَذَا دِينُهُ أبداً وَدِينِي

أَكُلَّ الدّهْرِ حَلٌّ وارْتحالٌ؟ أَمَا يُبْقِي عَلَيَّ وَلَا يَقِينِي؟

قال ابن قتيبة: «وهي لم تقل شيئاً من هذا، ولكنه رآها في حال من الجهد والكلال، فقضى عليها بأنها لو كانت ممن تقول لقالت مثل الذي ذكر»[3].

(١) تأويل مشكل القرآن، ص ١٨

(٢) سورة فصلت، الآية ١١.

(٣) تأويل مشكل القرآن، ص١٠٧.

ولما كان أكثر ما بلغنا من كلام العرب الفصحاء منظوماً كانت عناية ابن قتيبة بما يحيط بالشعر من علوم ومعارف بادية، وإشاراته في المقدمة إلى شيء من ذلك دليل على أهميته في تحليل النص الشعري، ومن ثم القدرة على حسن فهمها وتوظيفها في الكشف عن معاني مشكل الآيات، فحين تستوقف المقاطع الإشكالية ابن قتيبة في نصوص الوحي يعتمد استراتيجية نصية ناجعة تتمثل في استدعاء الكلام المنظوم لفصحاء الشعراء، بما يمثل من منجز لغوي فطري يحمل كل خصائص اللغة الفطرية التي بها نزل النص القرآني.

٢. اتحاد العلوم وإشكالية الدلالة القرآنية

النص القرآني خطاب لغوي منسجم ومتماسك، تحكمه خصائص معجمية وتركيبية وأسلوبية وسياقية، ولذلك فإن دراسة بنيته النصية تستدعي اتحاد العلوم وتضافر المعارف؛ لاستنباط دلالته وإزالة الخفاء والالتباس المعنوي عن مقاطع الإشكال فيه، وقد غدا هذا المنهج الذي يعتمد تكامل المعارف إحدى دعائم علم لغة النص في الدرس اللساني الحديث، الذي يبحث في العلاقات بين بنيات النصوص والكشف عن أبنيتها العميقة، ولا غرو أن كانت «العناية بالنسق والنظام والعلاقات التي تربط أجزاء النص بعضها ببعض، ليست وليدة هذا العصر، عصر اللسانيات والعلوم الإنسانية، ولكنها وجدت من قبل في اهتمامات علماء التفسير وعلوم القرآن، المنهجية، وفي طرق تناولهم للنص القرآني. فجاءت علوم القرآن بوصفها آليات معرفية وضعت في الأصل لإعادة إنتاج النصوص في التراث وقراءة تلك النصوص بها، وهي آليات متكاملة ومتفاعلة لا تعرف الحدود الفاصلة بينها»[1].

بعد تكوّن علوم العربية وانتقالها إلى معارف صناعية لم يعد في الكون لغة طبيعية أخرى تناظر أو تعادل لغة القرآن، سوى ما كان من نتاج علوم

(١) نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث، بودرع، عبدالرحمن، ص ٣٢-٣٣.

العربية على اختلافها، ولم يعد في مقدور أحد أن ينفذ إلى مدلول النص القرآني خارج دائرة هذه العلوم، بما تختزن من قواعد، وما تقوم عليه من مصطلحات وحدود، وما دمنا نستنطق مضامين مقدمة ابن قتيبة فإننا نجتزئ منها أولى ممارساته التحليلية لنرصد من خلالها سمة التكامل المعرفي بين العلوم، ونستدل على آليات الصناعة في منهجه التحليلي، يقول: «ولو أن قارئاً قرأ: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[1]، وترك طريق الابتداء بـ(إنا) وأعمل القول فيها بالنصب على مذهب من ينصب (أن) بالقول كما ينصبها بالظن- لقلب المعنى عن جهته، وأزاله عن طريقته، وجعل النبي، عليه السلام، محزونا لقولهم: إن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون. وهذا كفر ممن تعمده، وضرب من اللحن لا تجوز الصلاة به، ولا يجوز للمأمومين أن يتجوزوا فيه»[2].

يرتكز التحليل في هذا النص على استدعاء مختلف المعارف النصية، مثل: «الوقف والابتداء ونظام العوامل النحوية والمذاهب النحوية والعقيدة والفقه وأصوله»، فهذه علوم متعددة بينها ترابط واشتباك منهجي، يستهدف بؤرة إشكالية في الآية الكريمة، ويحاول ابن قتيبة أن يقدم إجابة ترتكز على توظيف نتائج العلوم الصناعية النصية بما يتلاءم وطبيعة المتلقي الفاقد لشروط التكلم الطبيعي الفطري للغة العربية. وبهذا نستدل على أن علم مشكل القرآن قد نشأ استجابة لظروف ثقافية أملتها الحقبة التاريخية التي شهدت حركة تأسيسية كبرى للمعارف الإسلامية، ابتدأت بانصرام القرن الأول الهجري واستمرت قرنين من الزمان.

(١) سورة يس، الآية ٧٦.

(٢) تأويل مشكل القرآن، ص ١٤-١٥.

خاتـــــــــــــــــمة

توصل الباحث بعد استقراء المداخل المنهجية والمعرفية لموضوع الدراسة وإخضاعها للتحليل إلى النتائج الآتية:

١. إن البحث في نشأة علم مشكل القرآن عند ابن قتيبة من خلال كتابه يقتضي استحضار المشروع الكبير الذي تبناه ابن قتيبة، الذي يمكن اختزاله في مناهضة التأويلات الفاسدة لنصوص الوحي، قرآناً وسنة.

٢. إن الناظر في مؤلفات ابن قتيبة (تأويل مشكل القرآن- تأويل مختلف الحديث- تفسير غريب القرآن) يجدها تبحث عن إشكالات من صميم هذا المشروع البياني الضخم، الذي شارك فيه ابن قتيبة وغيره من الرواد الأوائل.

٣. تفصح مقدمة المشكل عن سؤال النشأة والتطور، وتبين عن الأغراض المتمثلة أساساً في الرد على الاعتراضات التي تصدر عن كل ملحد محرِّف، أو عن كل ذي فهم كليل، وبصيرة عليلة، أو فهم مدخول. وقد أقام ابن قتيبة تلك الردود على قوانين علمية، تصمد عند التمحيص، وتقوى على دفع دعاوى الطاعنين المغرضين.

٤. إن المنهج الذي رسمه ابن قتيبة لتأويل المشكلات القرآنية يقوم أساساً على التكامل المنهجي بين العلوم العربية والإسلامية الناشئة في ظل النص القرآني، كالرسم العثماني، والقراءات القرآنية، والنحو، والتصريف، وعلم الأصوات، والمعجم، والأساليب، والشعر، وغيرها.

٥. ما كان لعلم «مشكل القرآن» أن يشهد نشأة صناعية كالتي ظهر بها مع ابن قتيبة، لولا اكتمال صرح العلوم الإسلامية، فأضحت بعد ذلك مختلف علوم العربية أدوات تحليلية يوظفها ابن قتيبة توظيفاً دقيقاً بفضل مؤهلاته العلمية العالية في مختلف ضروب العلم.

٦. يعد موضوع هذا البحث لبنة أولية يمكن لدراسات أخرى أن تتوسع فيه لترصد أهم العناصر التي تحكمت في مشكل القرآن عند ابن قتيبة وتسعى إلى استنباط الآليات اللغوية من توجيهات نحوية وصوتية صرفية وقرائية وغيرها من الوسائل المعرفية التي توسل بها ابن قتيبة لحل تلك الإشكالات القرآنية، والإجابة عن تلك التساؤلات، ثم تسعى إلى الإبانة عن نتائج عن هذه الدراسة القرآنية وما أسفرت عنه من تنظيرات وتطبيقات لغوية وأسلوبية.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم (مصحف المدينة).
- ابن الجزري، أبو الخير، **شرح طيبة النشر في القراءات**، ضبطه وعلق عليه: الشيخ أنس مهرة، دار الكتب العلمية - بيروت، ط٢، ٢٠٠٠م.
- ابن العربي، محمد بن عبدالله أبو بكر، **قانون التأويل**، ط١، تحقيق: محمد السليماني (جدة: دار القبلة للثقافة الإسلامية ١٩٨١م).
- ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم، **تفسير سورة الإخلاص**، ط١، تقديم: زهير شفيق الكبي (بيروت: دار الكتاب العربي ١٩٩٣م).
- ابن جني، عثمان أبو الفتح، **الخصائص**، تحقيق: محمد علي النجار (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٥٢م).
- ابن جني، عثمان أبو الفتح، **المنصف**، ط١، تحقيق: ابراهيم مصطفى وعبدالله أمين، (القاهرة: دار إحياء التراث القديم، ١٩٥٤م).
- ابن فارس، أحمد، **الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها**، ط١، تعليق: أحمد حسن بسج، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م).
- ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم، **تأويل مشكل القرآن**، ط٢، شرح ونشر: السيد أحمد صقر، (القاهرة: دار التراث ١٩٧٣م).
- أبو حازم، مصطفى، **النحو والتفسير: أصول نظرية ونماذج تطبيقية**، ط١. (مراكش: المطبعة والوراقة الوطنية ٢٠١٥م).
- أحمد، محمد قدُّور، **أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة كتاب العين**، ط٢، (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٣م).
- البغدادي، عبدالقادر بن عمر، **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، ط٤، تحقيق وشرح: عبدالسلام هارون، (القاهرة: مكتبة الخانجي ١٩٩٧م).
- بودرع، عبدالرحمن، **نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث**، ط١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية القطرية، (الدوحة: ٢٠١٣م).

- حامد أديينوي، **كتب مشكل القرآن حتى القرن السادس الهجري، دراسة لغوية تحليلية**، رسالة دكتوراه في الدراسات اللغوية في جامعة العلوم الإسلامية العالمية، نوقشت عام ٢٠١٤م. تحت إشراف الأستاذ عودة خليل أبو عودة.
- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم، **مفردات ألفاظ القرآن**، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٢ هـ.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله، **البرهان في علوم القرآن**، ط١، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه ١٩٥٧م).
- سيّب، خير الدين، **تغاير الأسلوب في القراءات القرآنية، وأثره في اختلاف المعنى**، (دمشق: دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق، ط١، ٢٠٠٩م).
- الشاطبي، أبو إسحاق، **الموافقات**، ط١، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان (القاهرة: دار ابن عفان، ١٩٩٧م).
- عبدالله بن حمد المنصور، **مُشْكِلُ القرآن الكريم، بحث حول استشكال المفسرين لآيات القرآن الكريم: أسبابه، وأنواعه، وطرق دفعه**. صدر عن دار ابن الجوزي، الدمام، ط ١، ١٤٢٦ه.
- فادي بن محمود الرياحنة، **منهج ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن وأثره في الدراسات القرآنية**، دار دجلة ناشرون وموزعون، عمان الأردن، ٢٠١٢م.
- القاضي، عبدالجبار، **متشابه القرآن**، تحقيق: عدنان زرزور، (القاهرة: دار التراث، ١٩٦٩م).
- محمود شاكر، أبو فهر، **جمهرة مقالات محمود شاكر**، جمع وتقديم عادل سليمان جمل، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ٢٠٠٣م).
- معيوف الشماع، شذى، **الصوت وأثره في الدلالة**، مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية، (ج١٣)، ع (٩) ٢٠٠٦م).